

آسية بنعدادة (إشراف)، المعرفة الطبية وتاريخ الأمراض في المغارب، بتعاون بين مؤسسة الملك عبد العزيز بالدار البيضاء وكلية الآداب بالرباط، سلسلة أوراش البحث، منشورات عكاظ، الرباط، 2011، 297 ص.

صدر عن مؤسسة الملك عبد العزيز بالدار البيضاء وكلية الآداب بالرباط ضمن سلسلة "أوراش البحث" منشورات عكاظ (2011)، وتحت إشراف الأستاذة آسية بنعدادة كتاب بعنوان: **المعرفة الطبية وتاريخ الأمراض بالمغارب،** وهو ثمرة عمل جماعي ضم متخصصين في أعصر مختلفة من تونس والمغرب، التأموا حول موضوع يعتبر جديدا في حقل الكتابة التاريخية ببلدان المغارب، إذ لم تظهر الدراسات المتعلقة بهذا الميدان إلا في زمن متأخر، عندما انفتحت أعين الباحثين، انطلاقا مما كان يصدر عن مدرسة الحوليات، على ما كان يبري الأجسام ويقض المضاجع من الأمراض والعلل لدى مجتمعاتنا. فالكتاب من هذه الوجهة، يفتح بابا جديدا من أبواب البحث التاريخي، ويغري بمزيد من النبش فيما كان يكرث مجتمعات المغارب من طوارق العلل، وما كان تم تهييؤه لذلك من أسباب التوقي والاحتراز.

يضم الكتاب بين دفتيه ثلاث عشرة مداخلة لمتخصصين تونسيين ومغاربة تغطي فترة تمتد من القرن الرابع عشر الى القرن العشرين، وتخوض في مواضيع مختلفة اهتم بعضها بما ورد بين ثنايا المصادر مما يمت الى حفظ الصحة من حمية وغذاء وبيمارستانات وعشب وعقار. وانصرف اهتمام البعض الآخر الى الموقف من العلل والأمراض وطرق مواجهتها، وما أحدثه الطب العصري كطب دخيل على مجتمعات المغارب من تحولات، كان الهدف منها ضمان بيئة سليمة للاستقرار، مما لم يكن يتمشى وثقافة حفظ الصحة لدى المغاربيين يومئذ.

وبالنظر للمعطيات الواردة في تضاعيف الكتاب، يمكن توزيعها بين ثلاثة أقسام: اهتم القسم الأول منها بالمعرفة الطبية من خلال المصادر وتناول حفظ الصحة لدى الطفل والشيخ وما يرتبط بذلك من تقلبات الفصول وأثرها على الأجسام، كما تناول الوضع الطبي في العصر السعدي مركزا على بيمارستان مراكش من خلال مخطوط العبدي الكانوني **عن تاريخ الطب بالمغرب** ، وعرض لأحد الأطباء الذين أرسلهم السلطان مولاي الحسن إلى أرض الكنانة للنهل من المعرفة الطبية هناك ويتعلق الأمر بعبد السلام بن محمد العلمي، الذي ألف بعد عودته من مصر كتاب **ضياء النبراس في حل مفردات الأنطاكي بلغة فاس،** فسر فيه مفردات داوود الأنطاكي بلغة أهل فاس ثم ذيله بما يتعلق بالأمراض من الاحترازات وأهداه للسلطان.

وصرف القسم الثاني من الكتاب الحديث عن الموقف من الوباء والمرض، وقدم معلومات عن الأوبئة وموقف الفقهاء والناس إزاء فشوها، إذ أثر الخوف من الطاعون الأسود على سلوك الناس فأصبحوا يزهدون في الحياة ولا يقيمون لها وزنا، ويربون الصدقات أملا في الخلاص. ولم يغب في هذا القسم الحديث عن موضوع العلماء وما كانوا يفتون به من إجراءات الاحتراز، أو ما يصدر عنهم من مواقف تميزت بالتشدد لدى البعض والانفتاح لدى البعض الآخر. وضمن نفس السياق تم رصد تمثلات التونسيين للطاعون وبعض من ثقافة المرض لديهم، إذ تم التركيز على ثنائية الفقه والطب في القرن الثامن عشر من خلال شهادات الرحالة والإخباريين وبعض النتف من الزجل، ونفي ما يسمى بالنظرة الديكوتومية التي تقول بوجود قطيعة بين العلم والدين وبين الطب والفقه، واستجابة الفقهاء لما يرومه المخزن من تحكم في الفقه والطب معا. كما انصب الاهتمام على الجانب الثقافي للمرض ، فتم إبراز معالم الأحوال الصحية للتونسيين انطلاقا من إحصاءات وزارة المرأة وشؤون الأسرة، وكذا تصورهم للأمراض الخطيرة مما نجد شبيها له لدى المغاربة.

وقد أقحم ضمن هذا الفصل موضوع حول مفهوم المرض والعلاج لدى هنود أمريكا وهو موضوع لا يدخل ضمن دائرة ما يرام من عنوان الكتاب، ويدور حول ثقافة المرض وآليات العلاج ويبرز ضرورة الاسترشاد بالأنتربولوجيا أن كثيرا من تصورات الهنود للمرض وأسبابه تلتقي مع ما يوجد لدى حضارات أخرى وأن طرق العلاج لديهم خليط من الشعوذة والسحر والطقوس الدينية،

بالإضافة إلى استعمال الأعشاب وحمامات الرشح، غير أن وسائل العلاج هذه، لم تنجع في ما وفد مع الأوروبيين من علل نحو العالم الجديد.

ويضم القسم الثالث بعض ما سنته الحماية الفرنسية من سياسات في ميدان الصحة وما أقرته من تنظيمات في هذا الباب. وهكذا تم التعرض لعلاقة الطب بالطقوس الجنائزية وتشريح الجثث في تونس والمغرب من خلال كتابات محمد السنوسي وابن المواز، ذلك بأن الطب العصري وهو يقتحم مجتمعات شمال إفريقيا، قد أدخل آليات تطبيب جديدة تعتمد فحص الجثث وتشريحها أحيانا قبل أن توارى التراب وهو ما لم يكن يتمشى وثقافة الموت لدى التونسيين مما أدى إلى مواجهة بين الطب العصري والفقه بخصوص المسألة الجنائزية.

وأمام ما كانت الحماية الفرنسية ملزمة به لضمان بيئة سليمة لإقامة الفرنسيين لحفظ الصحة وتوفير الماء الشروب ونقل النفايات في المدن ومنها مدينة قابس، فإنها اتجهت الى نهر قابس الذي يخترق المدينة واقترحت حلولا لتلافي التلوث وذلك بتغيير مجراه والعمل على تطهير مياهه، بغية إيصال سكنى الأوروبيين بالمدينة بما يكفيهم من الماء، ودرء ما قد يتهددهم من حمى وزهار، ومنعت بشكل قاطع الأهالي من الغسل وتوريد الماشية أو حتى استعمال ماء النهر.

وانصب الاهتمام في هذا القسم على سياسة الحماية الفرنسية في الميدان الصحي بالمغرب، فتم التعرض لدائين كثيرا ما فتكا فتكا ذريعا بالمغاربة هما الطاعون والزهري، وما كانت تعده سلطات الحماية من أسباب التطويق والاستئصال وتقاصر قدرتها عن القضاء على الزهري.

وتم التركيز على التنظيم الهيكلي لقطاع الصحة وانتصاب المؤسسات الاستشفائية على اعتبار أن ذلك يخدم التوغل السلمي وحماية الوافدين والمقيمين من الأوروبيين وكذا الحفاظ على الرأسمال البشري. ولم تغب السياسة الطبية في النظام التعليمي حيث تم اعتمادا على مجموعة من التقارير الخاصة بالصحة المدرسية، الكشف عن طرق التفتيش الطبي في المدارس وعن الأمراض التي كانت متفشية بين الأطفال كالرمد والحصبة والسعال الديكي والجرب والقرع والقروح، ولم تكن الأدوية المقدمة كافية للقضاء عليها، كما أن الاهتمام كان منصبا على مدينة الدار البيضاء لكونها عاصمة اقتصادية تأوي نسبة مهمة من الأجانب.

وما أحسب هذه العجالة بالذي يغني عن الرجوع الى الكتاب وقراءته، فجدة موضوعه واتساع حقله وتشعبه لما يتطلب مزيدا من الاهتمام والتعمق، مواضيع من قبيل النزولوجيا أو تصنيف الأمراض وثقافة المرض وعلاقة الطبيب بالمريض وسلطة الطبيب والخوف منه ما زالت في حاجة الى البحث والتقصي.

ذ. بوجمعة رويان
كلية الآداب، القنيطرة